

النقد البيئي والدراسات الثقافية

Eco-criticism and cultural studies

أ.د/ صالح ولعة

كلية الآداب واللغات - جامعة باجي مختار/عناية

(ouelaa_salah@yahoo.fr)

تاريخ النشر: 2024-01-01

تاريخ القبول: 2023-12-10

تاريخ الإرسال: 2023-02-16

الملخص:

نشأ النقد البيئي عند أتباع الحركة البيئية، وهي حركة ذات خلفيات اجتماعية، وفلسفية وسياسية، مما جعل النقد البيئي حقلاً تتقاطع فيه كل هذه الخلفيات المعرفية. غير أنّ الاهتمام بالدراسات الأدبية البيئية كان محدوداً، وهو ما يعكس وعياً متأخراً عند المبدع والناقد معاً، مما يؤكد أن الكثير من الدراسات النقدية التي ربطت بين البيئة والأدب كانت دراسات فنية في المقام الأول والأخير. ولم تنل الطبيعة في علاقاتها أو حضورها في الأدب الخطوة النقدية المرتبطة بوعي إيكولوجي يستشعر الخطر على البيئة ومقدرات الحياة. وعليه، يمكن إعادة قراءة النصوص الأدبية العربية بنظرة نقدية جديدة ونقد بيئي يركز على فهم الخيال ومضمراته الفكرية المتأصلة في الفكر العربي والإسلامي. وستركز هذه الدراسة على الأنساق الثقافية الإيكولوجية والكولونيالية الإيكولوجية والنسوية الإيكولوجية.

الكلمات المفتاحية: النقد، البيئة، الثقافة، النظرية الأدبية، النسوية، المابعد استعمارية.

Abstract:

Eco-criticism arose among followers of the ecological movement which has social, philosophical and political origins, making eco-criticism a field in which all these cognitive backgrounds intersect. However, interest in ecological literary studies was limited, reflecting a late awareness of both writer and critic, confirming that many of the critical studies that linked ecology and literature were primarily studies artistic. Nature, in its relationships or presence in literature, has

not achieved the critical favor associated with an ecological consciousness that senses danger to ecology and the capabilities of life. Thus, it is possible to reread Arabic literary texts with a new critical look and with an eco-criticism focused on the understanding of the imagination and its intellectual contents rooted in Arab and Islamic thought. This study will focus on eco-cultural models, eco-colonialism and eco-feminism.

Keywords: criticism, ecology, culture, literary theory, feminism, post-colonialism.

Résumé:

L'Eco-critique est née parmi les adeptes du mouvement écologiste qui a des origines sociales, philosophiques et politiques, faisant de l'éco-critique un domaine dans lequel se croisent tous ces arrière-plans cognitifs. Cependant, l'intérêt pour les études littéraires écologiques était limité, ce qui reflète une prise de conscience tardive tant de l'écrivain que du critique, ce qui confirme que bon nombre des études critiques qui liaient l'écologie et la littérature étaient avant tout des études artistiques. La nature, dans ses relations ou sa présence dans la littérature, n'a pas obtenu la faveur critique associée à une conscience écologique qui sent le danger pour l'écologie et les capacités de la vie. Ainsi, il est possible de relire les textes littéraires arabes avec un nouveau regard critique et avec une éco-critique axée sur la compréhension de l'imaginaire et de ses contenus intellectuels enracinés dans la pensée arabe et islamique. Cette étude se concentrera sur les modèles éco-culturels, l'éco-colonialisme et l'éco-féminisme.

Mots-clés : critique, écologie, culture, théorie littéraire, féminisme, post-colonialisme.

تمهيد:

ظهر النقاد البيئيون مهتمين بقضايا نقدية نابذة من النظرية الأدبية التي اهتمت بالأدوات الرومانسية، والثقافية، والنسوية وما بعد كولونيالية مطوعين العمل الأدبي لدراسة نقدية بيئية في مرحلة ما بعد الحداثة بهدف تصحيح المفاهيم وتعريف المسلمات السلطوية والمؤسسات المهيمنة لا على الطبيعة فحسب، بل على جميع مكوناتها ومن أهمها البشر، فكان أن قدم النقاد تفويضا لخطاب العرق، والجنس والطبقة. لذلك،

سنستعين في هذا المقال بإشارات تطبيقية لنصوص سردية بالتركيز على إبراز التقاطع على مستوى الدرس الثقافي والمضمر البيئي.

أولاً- المصطلح/المفهوم والآفاق:

عرف تاريخ النقد البيئي، الذي يُفهم على أنه دراسة للعلاقة بين الأدب والبيئة، لحظات تأسيسية بالإضافة إلى لحظات أزمة. يمكننا أن نتتبع نشأته وفق تسلسل زمني، مع تسليط الضوء على استمرارية معينة في الرغبة في دعم القضية البيئية. أو يمكن أن نعرضها على شكل سلسلة من المواقف والتعارضات فيما يتعلق بفكرة الطبيعة.

تجدر الإشارة إلى أن النقد البيئي قد أصبح راسخا في مجال النقد الأدبي، إذ يظهر بانتظام في مختارات النظرية الأدبية، (Barry, 2002; Bertens, 2010; Waugh, 2006)، كما أنه موضوع لعدة كتب تمهيدية (كلارك، 2011؛ جارارد، 2012)، ويتضمن عدداً كبيراً من القراء (برادلي وسوبر جونز، 2013؛ برانش وسلوفيك، 2003؛ كوبيه، 2000؛ جلوتفيلتي وفروم، 1996؛ هيلنر، 2014)⁽¹⁾. فما هو النقد البيئي؟

هو ببساطة النقد الذي يدرس "العلاقة بين الأدب والبيئة المادية. فكما يبحث النقد النسوي في العلاقة بين اللغة والأدب من منظور واع للجنس، ومثلما يستحضر النقد الماركسي وعيا وإدراكا لأنماط الإنتاج والطبقة الاقتصادية عند تعامله مع النصوص الأدبية، يتخذ النقد البيئي منهجا يركز إلى الأرض في تعامله مع النصوص الأدبية"⁽²⁾.

برز النقد البيئي مع مطلع التسعينيات من القرن العشرين (على الرغم من وجود بعض الدراسات الرائدة مثل "ملهاة البقاء 1972" لجوزيف بيكر (Baker Joseph) و(القرية والمدينة) "لريموند ويليامز (Raymond Williams) والتي تحظى بشرف السبق والتحول لهذا النهج النقدي إلا أن هذا النهج ظل غامض الملامح في الدراسات الغربية. ويرى "جرارد جريج (Gerrard Greg) " هذا النهج النقدي استمد قوته وشرعية وجوده من حركات حماية البيئة التي نشطت في تسعينيات القرن العشرين، وعلى الرغم من وجود أنماط أخرى من النقد السياسي، مثل الماركسية الغربية، والنقد النسوي، ونقد ما بعد الحقبة الاستعمارية التي حظيت كلها بشرعية وانتفاء كامل، إلا أن النقد البيئي واجهته معارضة شديدة اعترضت طريق انضمامه إلى تيارات النقد المتعددة"⁽³⁾.

وقبل أن أتوسع في دراسة نشأة مصطلح النقد البيئي وقضاياه وتقاطعه مع النظرية الأدبية المعاصرة وجذوره الفلسفية والدينية والأسطورية التي أسهمت في بلورة هذا الحقل المعرفي الجديد، أشير إلى أنني استندت في التأسيس النظري لهذه الدراسة إلى كتاب (جرارد جريج (Gerrard Greg)) الموسوم بـ (النقد البيئي) إذ شكلت هذه الدراسة تحولا أساسيا في مسيرة تطور النقد الثقافي الأدبي المتمحور حول البيئة. ويعد هذا العمل أول كتاب تقديمي في مجال النقد البيئي، مزود بملحق مصطلحات غاية في الأهمية والإفادة، بالإضافة إلى قائمة من المراجع والدراسات الإضافية. فقد قدم هذا الكتاب دفعا قويا في مجال البحث في الأدب والثقافة والبيئة، وقلما نعثر على دراسة في موضوع النقد البيئي لم تعد إليه.

حدد "غلوتفلي (Glutfly)" بعض الأسئلة التي يطرحها النقاد البيئيون التي تمتد من: كيف مثلت الطبيعة في النص الأدبي وصولاً إلى ما هي إمكانية التداخل الخصب بين الدراسات الأدبية والخطاب البيئي في حقول المعرفة المتداخلة مثل علم النفس، والتاريخ، والفلسفة وتاريخ الفن والأخلاق؟.

فالنقد البيئي هو نمط تحليلي سياسي صريح مثلما يستدعي مقارنته بالنقد النسوي والماركسي، "فالنقاد البيئيون عموماً يربطون تحاليلهم الثقافية صراحة ببرامج سياسية، وأخلاقية خضراء"⁽⁴⁾.

نشأة الأدب البيئي:

يشير جيرارد جريج في مقدمة كتابه (النقد البيئي) إلى أن البدايات الأولى لنشأة هذا الحقل المعرفي يعود إلى " قصة خرافة الغد (.....) من مجموعة "راشيل كارسون (Rachel Carson)" (...) القصصية (الربيع الصامت) 1962. وقدم نصاً يبرز تناغم الحياة بشتى صورها (المزارع المزهرة، والحقول الخضراء، وعواء الذئب في التلال، والغزلان الصامتة، ونباتات السرخس والزهور البرية، والطيور التي لا حصر لها، وأسماك السلمون المرقط التي تسترخي في ماء الجداول العذب البارد، كلها كانت مبتهجة برؤية عابري السبيل يقطعون البلدة)"⁽⁵⁾.

ركزت القصة على تصوير جمال الطبيعة وسحرها المتوهج، وأكدت على علاقة التناغم التي سادت بين الإنسان والطبيعة. إلا أن هذا السلام الرعوي ما يلبث أن يمهد سريعاً لدمار كارثي. "(فجأة زحفت آفة غريبة على المكان، وبدأ كل

شيء يتغير، خيم سحر شرير على المجتمع، علل غامضة سحقت قطعان الدواجن، سمقت الأغنام والماشية ونفقت. وخيم ظلام الموت على المكان⁽⁶⁾.

يشير النص الثاني تحديدا إلى صورة التمزق التي طالت عناصر الحياة الرعوية البسيطة، والمتهم الحقيقي في هذه الكارثة البيئية هو المييدات العضوية الجديدة التي عرفها العالم بعد الحرب العالمية الثانية.

المرجعيات الفلسفية:

منذ أن قسم فلاسفة اليونان المجتمع إلى طبقتين كبيرتين: الطبقة الأولى هي طبقة الأحرار النبلاء، الطبقة الثانية هي طبقة العبيد. تختص طبقة الأحرار بإنتاج الفكر متسلحة بسلاح العقل والمنطق، بينما تميل طبقة العبيد بطبعها نحو العاطفة والجسد وهذه ما يجرها إلى الغرائزية والشهوانية.

شبه فلاسفة اليونان المجتمع بالإنسان: عقل وجسد، وإذا كان من الخير للإنسان أن يتحكم العقل في الجسد ليحقق التوازن والخير والكمال، فالأمر ينطبق كذلك على المجتمع الفاضل، فمن الخير للمجتمع أن يسيطر الحر على العبد خدمة للأخلاق والفضيلة والغاية الأسمى للمجتمع.

وقد تجلّى هذا الموقف في فكر أفلاطون (Platon) الذي دعا إلى ضرورة اسغلال الحر للعبد لتخليص المجتمع من الانفعالات والعواطف المدمرة، فكان موقفه صريحا من شعراء الشعر الدرامي السلبيين لأنهم يشيرون غرائز الناس عن طريق التخيلات الكاذبة، يحملون الأشياء ليخدعوا بها الناس. فهناك نوع من الشعر يصف الآلهة بأوصاف لا تليق بهم مما يعرض المدينة إلى الضعف والفوضى. إن

وصف الآلهة وهي تبكي وتنتحب وتتمرغ في الوحل عمل يعارض الفضيلة ويسبب دمار أثينا. من هنا بدأ التأسيس للمركزية العقلانية في الفلسفة اليونانية.

مهدت الفلسفة اليونانية لظهور مجموعة من الثنائيات تؤكد مركزية العقل الغربي وتفوقه ليس على بني البشر الآخرين فحسب، بل وعلى كل الطبيعة ومكوناتها. وهكذا تأسست الروافد الفكرية الفلسفية الإغريقية بدءاً من الأنسنة الكلاسيكية اليونانية، ثم مرحلة التنوير الديكارتية، بالإضافة إلى النزعات الدينية المسيحية واليهودية التي شكلت مركزية العقل الغربي. والفكر المسيطر على الأيديولوجيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

لقد اتسمت الفلسفة الإغريقية بتكريس مبدأ التراتبية، وظل الأمر على هذا الشكل إلى أن ظهرت فلسفة جديدة معارضة للطروحات الإغريقية المركزية، داعية إلى تقويض الخطاب العقلاني المركزي الغربي، كان ذلك في مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة مجسدة "في فلسفة" فريدريك نيتشة (Friedrich Nietzsche) الذي قدم نقداً للمركزية الإنسانية التي عمقت الفجوة بين الإنسان وغيره من الكائنات الأخرى، وبذلك بدأ التأسيس لمفهوم المركزية الحيوية المناهضة للأطروحة اليونانية⁽⁷⁾.

دعت فلسفة ما بعد الحداثة إلى تقويض الثنائيات المركزية الثابتة التي طبعت المنجز النقدي والفلسفي الإغريقي، ودعت إلى إلغاء مبدأ التراتبية وبشرت بإعادة النظر في علاقة البشر بالبشر، وعلاقة البشر بغير البشر (الطبيعة والحيوانات والطيور....).

كان لفلسفة ما بعد الحداثة تأثير كبير في بداية الاهتمام بالنقد البيئي من منظور أخلاقي يحذر من الاستمرار في تهميش البيئة ورفض النظرة الدونية للطبيعة واعتبارها في خدمة الإنسان فقط.

النقد البيئي ونظرية الأدب:

ينظر إلى النقد البيئي باعتباره منهجا جديدا في القراءة والتحليل والتأويل، يركز على حضور البيئة في النصوص الأدبية بمعنى أن هذا النقد "يتخذ بعدا موضوعاتيا وثقافيا وتفكيكيا ولا سيما إذا تسلح النقاد بمجموعة من المناهج الحديثة وما بعد الحديثة لمقاربة البيئة في النصوص والخطابات انطلاقا من الداخل النصي والسياق الخارجي، بغية تأويل النص ثقافيا وبيئيا وإعلاميا".⁽⁸⁾

يتقاطع هذا الاهتمام بشكل فعال مع نظرية الأدب من خلال ما يقدمه النقد الثقافي والنقد الما بعد استعماري من أدوات تتقاطع مع النقد البيئي، على الرغم مما يعانيه هذا الأخير من اعتراض وإهمال، فهناك من يرى "أن النقد البيئي يتنافى مع خصوصية الأدب الذي هو جمال وشعرية قبل أن يكون بيئة وطبيعة ومكان. ولعل هذا هو السبب في تراكم صعوبات الانتماء وتزايد عقبات على مستوى الاعتراف به كمنهجية في التحليل والدراسة والقراءة في مجال نظرية الأدب. لأننا لم نتعود بعد على الربط بين الطبيعة والثقافة، فنحن دائما نفصل بينهما، ولا نبالي بالقضايا المصيرية التي تهدد الحياة الإنسانية إن لم نسارع للاهتمام بها في كتاباتنا الإبداعية والنقدية تشخيصا وتحليلا ووصفا وتوجيها"⁽⁹⁾.

وعليه، قد يكون النقد البيئي أنجع أداة للكشف عن ترابطات نصية وخطابية بين الأدب والطبيعة والأرض والمكان والبيئة في ضوء قراءات ثقافية أو تفكيكية أو تأويلية...

في الواقع إن أكثر دراسات النقد البيئي اتساعا هو ذلك الذي يعرف النقد البيئي على أنه "دراسة الطبيعة والثقافة بين الإنساني واللاإنساني على مدى التاريخ الثقافي البشري.. وتضمن تحليل نقدي لمصطلح الإنساني ذاته"⁽¹⁰⁾.

ينفرد النقد البيئي عن النظريات الأدبية والثقافية المعاصرة، لأنه يرتبط ارتباطا وثيقا بعلم البيئة، من هنا تأتي الصعوبة، فالنقاد البيئيون غير مؤهلين كفاية للدخول في مناقشات حول البيئة، "ومع ذلك كان عليهم انتهاك حدود الحقول المعرفية العلمية وتطوير معرفتهم البيئية الخاصة بهم، وأن يدركوا أن هناك طروحات حقيقية تؤكد وجود تهديدات بيئية قد تعصف بعالمنا الراهن"⁽¹¹⁾.

ظهر الأدباء والنقاد البيئيون مهتمين بقضايا نقدية "نابعة من النظريات الأدبية عנית بالأداءات الرومانسية والثقافية والنسوية وما بعد كولونيالية مطوعين العمل الأدبي لدراسة نقدية بيئية في مرحلة ما بعد الحداثة، بهدف تصحيح المفاهيم وتعرية المسلمات السلطوية والمؤسسات المهيمنة لا على الطبيعة فحسب، بل على جميع مكوناتها ومن أهمها البشر، فكان أن قدم النقاد لخطاب العرق والجنس والطبقة"⁽¹²⁾.

النقد النسوي البيئي والنقد البيئي:

يقوم علم البيئة على ازدواجية الفوقية البشرية-البشرية/الطبيعية، إنها المصدر الأول للمعتقدات والممارسات المعادية للبيئة، ففي حين يلقي المذهب النسوي باللائمة أيضا على ازدواجية الفوقية الذكورية: الرجل/المرأة، وأن تمييز الأولى (البشر/الطبيعة) ينطلق من بعض الخواص المزعومة مثل امتلاك روح أبدية أو امتلاك العقل، ثم

تفترض أن هذه الميزة تمنح تفوقا بشريا. وأما الثانية فتميز الرجل/المرأة وفقا لبعض الخواص المزعومة مثل: حجم دماغ الرجل ثم تفترض أن هذه الميزة تمنح تفوقا للرجل. ووفق المذهب النسوي البيئي فإن هاتين الحجتين تتقاسمان منطق الهيمنة المشترك، وتؤسسان لـ (نموذج غالب) وهو أن المرأة "ارتبطت دوما بالطبيعة التي تتسم بالمادية والعاطفية والخصوصية، بينما ارتبط الرجل بالثقافة اللامادية والعقلانية، وأن هذا الربط يجب أن يفترض علة مشتركة بين دعاة المذهب النسوي وعلماء البيئة"⁽¹³⁾. وهكذا ارتبطت المرأة بالطبيعة، وكل صفة تزيد من تشويه مكانة المرأة أكثر من التي قبلها، يبدو جديرا أن يهاجم هذا الترتيب الطبقي من خلال قلب المعطيات: تمجيد الطبيعة واللاعقل والعاطفة والجسد الإنساني أو اللاإنساني مقابل الثقافة والرشد والعقل.

فقد تبنى بعض دعاة المذهب النسوي البيئي "أن وعي علم البيئة هو وعي المرأة التقليدي، ولطالما فكرت المرأة مثل الجبال. يلمح "آلدو ليوبولد (Aldo Leopold)" (...) في التفكير البيئي (لا شيء يشبه تجربة نمو بطن أحدهم كالجبل ليعلمك هذا) وبالروح نفسها أسست "شارلين سيرتيناك (Charlene Spartinac)" نوعا من روحية النساء في أحياء الأنثى وثقافتها، وهذا يتألف من حقائق النزعة الطبيعية ونزعات النساء المقدسات"⁽¹⁴⁾.

إلا أن المذهب النسوي البيئي المتشدد يقدم صورة عاكسة كالمرآة "المفاهيم الأبوية () () للأنوثة في إطار محدد، وأن تتمين الأنوثة بوصفها أقرب إلى الطبيعة بفضل أنثوية الأنثى الحيوية أو الخبرة الاجتماعية، يغفل حقيقة أن الفروقات النوعية

البشرية كلها التي نعرفها، قد بنيت في المجتمعات التسلطية الأبوية"⁽¹⁵⁾، وانتقد دعاة المذهب النسوي البيئي مذهب الماهية النسوية البيئية المتشددة من منظور فلسفي واجتماعي والذين ألحوا إلى أنه "ليس بوسع المنظور النسوي الحقيقي أن يعتنق أي من المؤنث أو المذكر بلا نقد، لكنه يتطلب نقداً لأدوار النوع البشري، ولا بد لهذا النقد أن يضم الذكورة والأنوثة، ويبدو أن هذا الاعتراض لا يلقى قبولا لدى دعاة المذهب البيئي النسوي.

يبدو أن مجرد التفريق بين الرجال والنساء أو بين البشر والطبيعة أو بين العقل والعاطفة لا يخلق بذاته الفوقية الذكورية أو الفوقية البشرية، بل بالعكس من ذلك، فقد أصبح العالم "مستغربا كلياً تقريباً بحلول نهاية القرن العشرين، ذلك أنّ الثقافة الأوروبية -الأمريكية ستلعب خلال القرن القادم، في السراء والضراء-، دوراً مهماً بشكل غير متناسب في تطوير المواقف البيئية العالمية العامة - كما يقول بويل Buell في كتابه 'الكتابة من أجل عالم مهدد بالخطر' Writing for an endangered world والذي يفتح فيه أفق النهج النقدي البيئي تجاه المناظر الطبيعية الصناعية والسامة والحضرية كما تمثلها الأعمال الأمريكية".⁽¹⁶⁾

فلا بد للعقل الذي أنقذ من مثاليته التي تسبغها إياها الفلسفة الفوقية الذكورية أن يعترف ويحترم الآخرين على الأرض، لذلك يؤكد المذهب النسوي البيئي على العدالة البيئية.

تقتضي المشاكل البيئية تحليلاً ضمن المستويين العلمي والثقافي، لأنها نتاج تفاعل بين المعرفة البيئية للطبيعة، وبين انعكاساتها الثقافية، وهذا يتطلب البحث

في مركزات النظرية الأدبية والثقافية والفلسفية وعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ البيئي، وأن دراسة البلاغة توفر لنا نموذجاً لممارسة قرائية ثقافية مكرسة للقضايا السياسية والأخلاقية⁽¹⁷⁾.

وإذا كان النقد النسوي يركز على الارتباط الوثيق بين المرأة والطبيعة، فإن النقد النسوي البيئي يسعى إلى الكشف عن "العلاقات اللغوية والمجازية بالدعوة إلى التصالح مع الطبيعة وتعديل ما نتج عن الأخلاق البيئية البطريركية، تلك الأخلاق التي تعاملت مع الأرض كونها أرض وأن اضطهاد الطبيعة هو اضطهاد المرأة"⁽¹⁸⁾.

ربطت الفلسفة النسوية البيئية ما بين المرأة والطبيعة، نتيجة لذلك كانت قضايا النسوية تتوازي مع نظرة الاضطهاد بأشكاله المختلفة للبيئة. و"كان المرأة والبيئة وجهان لعملة واحدة، وكذلك لاشتراكهما غالباً في أزمنة متقاربة مادامت في إطار الاضطهاد والقيود والتهميش، لهذا تدرس بيئياً ضمن الإطار البيئي النسوي محددات الهيمنة الذكورية"⁽¹⁹⁾.

لقد كان النقد البيئي متقاطعا مع النقد النسوي بانسيابية، "وظهرت المطالب في أنساق ومضمرات بلاغية عبر الكتابة النسوية، حيث ظهر فيها طرق المعاملة للمرأة الموازية للطبيعة والمتشابهة معها في الفكر، من تمثيلات القهر الأنثوي في إسقاطات بيئية، فكان المنظور السردى معبرا عن مرور ملتبس بين علاقة في الحياة من جهة وعلاقتها بالطبيعة من جهة أخرى"⁽²⁰⁾.

يتساءل بعض كتاب النقد البيئي: هل يكتب الرجال عن الطبيعة بشكل مختلف عن النساء؟ "وليس من المستغرب أن هذا أدى إلى فئة من النقد البيئي

تعرف باسم النسوية الإيكولوجية مهمة في كيفية تركيز النسوية الإيكولوجية على الطريقة التي يتجلى فيها الجنس في تصوير المناظر الطبيعية⁽²¹⁾. حيث تعتقد بأنها ترسخ تقليدا من افتراض أن الأرض هي مؤنث، وأولئك الذين يستخدمونها ويهيمنون عليها هم الذكور "إن الأرض ليست امرأة ولكن من العصور القديمة، استخدم الكتاب الصور المؤنثة لتسويق الاستيلاء عليها"⁽²²⁾؛ ولا غرابة في أن تشيع كلمات ذات طبيعة أنثوية جنسية عند وصف الطبيعة مثل: (أرض بكر، وأرض عذراء، والأرض المغتصبة ورحم الأرض....).

النقد البيئي والنقد الثقافي:

إذا كان النقد الثقافي دراسة نقدية في الأيديولوجيات والأفكار والعقائد الكامنة في النص الأدبي، ودراسة مكونات النص الجمالية والفكرية واهتمام بالبنية اللغوية وعلاقتها بعالم النص في إنتاجه وتأويله ليدرس المضمرات النصية، "فإن ما يميز النقد البيئي هو تفكيك النص وتحليله بهدف الوصول إلى حل للأزمة البيئية وإعادة النظر في القيم الأخلاقية البيئية، ففي الوقت الذي يتقاطع النقد الثقافي مع النقد البيئي بالاهتمام المشترك بالعلاقات الإنسانية، بين الأنا والآخر، تجاوز النقد البيئي معطيات النقد بشمولية يصل إلى العلاقات البشرية وغير البشرية والبيئية الكونية بشكل عام"⁽²³⁾.

اتسمت كثير من أعمال النقد البيئي المبكرة بالاهتمام الخاص بالشعر الرومانسي والقصص البرية والكتابات عن الطبيعة، إلا أن السنوات الأخيرة شهدت تحولا صوب "نقد بيئي ثقافي أكثر شمولية، شمل كتابات علمية شائعة، وأفلاما

وعماره ونتاجات ثقافية أخرى مثل الحدائق الرئيسية وحدائق الحيوانات، نظرا لسعي الناقد البيئي إلى تقديم خطاب تحولي يمكننا من تحليل العالم المعيش ونقده⁽²⁴⁾.

علم البيئة الاجتماعي والماركسية البيئية:

على غرار المذهب النسوي البيئي، فإن سبب المشكلات البيئية ليس فقط اتجاهات الفوقية البشرية، ولكنها تنبثق أيضا من أنظمة السيطرة واستغلال البشر للبشر. وبالموازاة مع الفكر الماركسي التقليدي، دلت الماركسيون البيئيون على وجود صراع بيئوي بين العمال وأصحاب وسائل الإنتاج، حيث حصد أرباب العمل فائض القيمة التي ينتجها عمال البروليتاريا، وهذا استغلال يقع في صميم أشكال الاستغلال والظلم الأخرى. يقول بيتر (سيكون "المجتمع الشيوعي الحقيقي الذي سيخلف مرحلة الثورة مجتمعا بلا طبقات، وعندما تتحقق الدولة سوف تندثر أشكال التمزق البيئي كلها والاستغلال الاقتصادي"⁽²⁵⁾.

النقد البيئي وآلياته المنهجية:

قدمت النظرية الأدبية أدوات نقدية تعين على دراسة المظاهر البيئية في النص الأدبي وغير الأدبي، من خلال مكاشفة العلاقات الثنائية وفهم المفارقات الفكرية والأيدولوجية المسيطرة على الأعمال الإنسانية، لذا فإن "ارتباط النظرية الأدبية بمعارف تاريخية وفلسفية واجتماعية وسياسية يظهر في تأويل المعنى، وفهم مضمراته النسقية بعيدا عن النظرة السطحية للنص، بالإضافة إلى تحليل الخطاب المادي والرمزي وتفكيك العلاقات بين البشر والبيئة، وإبراز أشكال التجانس والوحدة بين

الإنسان في علاقاته الإحيائية والكونية. فالتحليل البيئي يركز على الأنسنة التي نقلت البيئة من عوامل مادية إلى سمو روحاني يرتبط بالبيئة كارتباطه بأمه⁽²⁶⁾.

ويمكن حصر المبادئ الأساسية في النقد البيئي في العناصر الآتية:⁽²⁷⁾

1- الاستراتيجية النقدية شكل من أشكال المقاومة البيئية.

2- النظرة إلى شعرية النص الأدبي وكأنها شعرية معرفية.

3- ولع النقد البيئي بالتنوع البيولوجي.

4- الأنسنة البيئية للطبيعة، الأنا والآخر.

5- الخيال البيئي.

6- التوحد مع البيئة والوعي الإيكولوجي.

7- الافتتان بالطبيعة.

8- التركيز على المعنى الروحي وتغليب على المادي.

9- حضور البيئة بوصفها أساس التاريخ الطبيعي.

10- مصلحة البشر ليست المصلحة الشرعية الوحيدة.

11- اعتبار البيئة جزءا من التوجه الأخلاقي للنص.

انطلاقا من هذه العناصر، التي تساعد في تحليل وتأويل المضمّر البيئي نقوم بتحليل النماذج السردية المختارة مع بيان الأنساق المضمرة من خلال العبارات والجمل المرتبطة بالطبيعة.

التخيل البيئي في روايات عبد الرحمن منيف:

يبدو أن الاهتمام بالدراسات الأدبية البيئية كان محدودا عند النقاد العرب، وهو ما يعكس وعيا متأخرا عند المبدع والناقد معا فقد غلبت الكثير من الدراسات الأدبية الجوانب الفنية لحضور الطبيعة، بعيدا عن الوعي البيئي الذي يستشعر حماية البيئة والتصدي لكل العوامل التي تهددها وتعرض مستقبل العالم للدمار. تعمدت في الجانب التطبيقي اختيار نماذج سردية لـ عبد الرحمن منيف لسببين:

الأول: سبب علمي كون الكاتب خبير في اقتصاديات النفط، ويدرك جيدا المخاطر التي تهدد البيئة من جراء اكتشاف النفط وما يفرزه من تلوث بيئي مدمر على الطبيعة بجميع مكوناتها.

وأما السبب الثاني: يعود لوجود خيال بيئي بارز في نصوصه السردية، خيال يستشعر الخطر ويحذر من نتائجه الكونية المدمرة.

ولذلك سنعمل على تحليل تقاطع خطاب النقد البيئي -في النماذج المختارة- بالتركيز على مستوى الدرس الثقافي والمضمير البيئي. ونظرا إلى طبيعة المقال المحدد، فلن تكون الدراسة مفصلة وشاملة، وإنما سأركز على التقاط الأنساق المضمرة في العبارات والجمل المرتبطة بالطبيعة والمتعلقة بالمرأة، على تلك الأنساق التي تبرز علاقة الإنسان الحميمة بالطبيعة عن طريق التحليل والتأويل الذي يكشف المخاوف البيئية سعيا لإنقاذها ومحاولة لحل الأزمة البيئية.

تدور أحداث رواية الأشجار واغتيال مرزوق في قرية الطيبة تتعرض البلدة إلى قطع أشجارها وزراعة القطن مكانها. فتنتقل بذلك من اقتصاد الاكتفاء الذاتي إلى مرحلة اقتصاد السوق. يتكئ عبد الرحمن منيف في رسم علاقة التناغم بين الطبيعة والإنسان على المسلمات الأسطورية والثقافة البدائية التي تجمع الإنسان والطبيعة والمجتمع في وحدة كونية واحدة تجمع الإنسان والحيوان والنبات والحجر، بين الحياة والموت، بين الجماعة والفرد. في رواية الأشجار نجد تلك الوحدة "بين السحر والفن حيث يبدو الفن استمرارا للسحر، فإذا كان السحر ملائما لشعور الإنسان بالاتحاد مع الطبيعة، فإن الفن وهو يسعى إلى إعادة هذه الوحدة المعقودة، يصبح تعبيرا عن بداية الشعور بالغربة، والانفصال"⁽²⁸⁾.

عندما تقطع أشجار الطيبة، تتحطم وحدة الحياة، ويغترب "إلياس نخلة" بسبب التغيير الذي لحق بالطيبة، اغترب عن الطبيعة وتنفكك نظرة إلياس نخلة إلى العالم، تلك النظرة التي يستوي فيها حمارة سلطان وزوجته حنة وأشجاره التي اقتطعت، وهو كأبي رجل بدائي يجعل للأشياء أرواحا، ولا يستطيع أن يتصور عالمه الطبيعي جامدا، بل يدرك ويسمع ويصير ويتكلم. "الأشجار لديه مثل الأطفال، وبمقدار ما ينظر الرب إلى الأطفال ويرعاهم، فإنه ينظر إلى الأرض من خلال أشجارها، فإذا قطع الناس أشجارهم، فإن الرب يتركهم ويعطي المطر لغيرهم"⁽²⁹⁾.

يروى السير جيمس فريزر (James Fraser) في كتابه الغصن الذهبي الكثير من المعتقدات التي ترى "أن لكل شجرة روحها الخاصة، وأن قطع شجرة يعادل "جريمة قتل الأم، لأن تلك الشجرة تهبهم الحياة والغذاء مثلما تفعل الأم مع صغارها"⁽³⁰⁾.

وبالعودة إلى رواية الأشجار يمارس إلیاس نخلة نفس الطقوس ولا یکتفی إلیاس نخلة بأن یشبه الأشجار بالنساء والأطفال فحسب، بل یمارس نفس الطقوس التي كانت تمارسها الشعوب البدائية " خاصة الشعوب التي تنتمي إلى الجنس الآري، " إذ تنزل عقابا صارما بالشخص الذي یجرؤ على نزع لحا إحدى الأشجار، وكانت القوانين الجرمانية تنص على أن الجاني تقطع سرتة وتنزع من مكانها، ثم تثبت بالمسامير في ذلك الموضع من الشجرة الذي نزع اللحا عنه ثم یؤمر بأن یدور حول الشجرة" (31).

یعاقب إلیاس نخلة زیدان الذي ربح أشجار الطيبة، ویوشك أن یقتلعها لیزرع القطن مكانها عقابا شبيها بما عرفته الشعوب البدائية، كان یحمل غصنا ویحفر على جسده العاري "ذكری لا ینساها حتى یموت، كان یصرخ والغصن ینغرس في لحمه، كان یتغیث وأنا أحفر بحقد على ظهره، على إلیته على صدره، قلت له: ستبقى هذه العلامات ما بقيت حیا، وتذكر أن هذه علامات شجرة واحدة، فإذا قطعت الأشجار، فإن كل شجرة ستترك علامات مثل هذه على جسدك" (32).

تدمر وحدة الحیاة في الطيبة، بعد أن راهن إلیاس نخلة على أشجاره وخسرها، اغترب عن الطبیعة وبرحيله إلى المدینة بحثا عن العمل اغترب عن ذاته وعن المجتمع.

في رواية "التيه" من خماسية مدن الملح یقدم "عبد الرحمن منیف" فضاء وادي العيون تقدیما سحریا یوحي بأهميته البديعة في حیاة الناس، تناول المكان والناس في ملاحظهم وعیشهم، في مزاجهم ونسبهم، في مواقفهم التاريخية وفي نظرهم إلى الآخرين.

"إنه وادي العيون... بقعة خضراء وسط الصحراء، تختلف عن كل ما حولها، نخيل يملأ الوادي والينابيع تنفجر في أمكنة عدة، شيء خارق (...) لا غنى عنه (...) لو لم يكن موجودا لما كان هناك بشرا وحياة".⁽³³⁾

يثير هذا الاحتفاء بتقديم فضاء وادي العيون انتباه القارئ، ويشحذ حواسه للمشاركة في إدراك هذا الحضور المفاجئ السحري، قياسا بما يحيط به من صحراء تشبه الجحيم.

وادي العيون قد يبدو بنظر الذين يسكنون فيه مألوفا "وبعض الأحيان يثير تساؤلات كثيرة (...) يحسون أن قدرة مباركة هي التي ترعاهم وتيسر لهم الحياة. وادي العيون بالنسبة للقوافل شيء خارق، أعجوبة لا يصدقها من يراها لأول مرة... فإذا استقرت القافلة وفكت أحمالها وارتوى الرجال والدواب، فإن نوعا من الحذر اللذيذ، لا يلبث أن يتحول إلى رضا عام، يسيطر على كل شيء"⁽³⁴⁾.

يدرك المتأمل لهذه المقاطع النصية علاقة التناغم والانسجام التي تربط الإنسان والطبيعة. عندما يسقط المطر يهتز الأرض وبعد أيام قليلة تنفجر الزرع "إن ذلك يشبه الالتحام بين رجل وامرأة ويشبه لحظة النشوة التي يحس بها الإنسان".⁽³⁵⁾

تشبيه اندفاع الزرع من باطن الأرض بالعلاقة بين الرجل والمرأة وبلحظة النشوة التي يحسها الإنسان، بما تنبأه بعض دعاة المذهب النسوي البيئي من أن وعي علم البيئة هو وعي المرأة التقليدي ولطالما فكرت المرأة مثل الجبال "لا شيء يشبه تجربة نمو بطن أحدهم كالجبل ليعلمك هذا".⁽³⁶⁾

يحبس سكان الوادي بروابط تشدهم إلى الأرض والنخيل وأشجار التين وإلى الناس. إلا أن هذا التناغم وهذا الانسجام سرعان ما يمهد لصدمة التغيير، بعد أن اكتشف الأمريكيان النفط بالمكان. خلال أيام تغير كل شيء: البشر والطبيعة والحيوانات. بدا "متعب المذال" في أشد حالات الحزن وكأن الدنيا في نهايتها "يقولون يوم القيامة ؟ اليوم هو يوم القيامة" (37).

"التراكتورات وهي تهجم مثل ذئب جائعة على الأشجار وتبدأ تمزقها وترميها أرضا الواحدة بعد الأخرى، ثم بعد ذلك تسوي بين شجرة وثانية، بين الساقية والأرض التي تليها حولها، حتى إذا انتهت من مجموعة من أشجار هجمت بنفس الضراوة والوحشية على مجموعة جديدة وبدأت تقتلعها. كانت الأشجار، وهي تميل وتترنح، وقبل أن تسقط، تصرخ، تستغيث، تولول، تجن، تنادي نداء أخيرا" (38).

إذا كان النقد النسوي يركز على الارتباط الوثيق بين المرأة والطبيعة، فإن النقد النسوي البيئي يسعى إلى الكشف عن العلاقات اللغوية والمجازية بالدعوة إلى التصالح مع الطبيعة وتعديل ما نتج عن الأخلاق البيئية البطريركية، تلك الأخلاق التي تعاملت مع الأرض كونها امرأة وأن اضطهاد الطبيعة هو اضطهاد المرأة.

يدرك المتأمل للنص السابق مجموعة من الأوصاف والأفعال الدالة على تلك النظرة الأنثوية للطبيعة (فالأشجار وهي تتعرض للهجمة: تميل، وتترنح، وتصرخ، وتستغيث، تولول...) كل هذه الأفعال هي أنساق ثقافية تؤكد أن الاضطهاد الذي تتعرض له الطبيعة هو الاضطهاد الذي تتعرض له المرأة. فكانت الرؤية السردية تؤكد الترابط بينهما وكأن المرأة والطبيعة وجهان لعملة واحدة.

يدرك "متعب الهذال" بطل الرواية أن قطع أشجار الوادي، يعني نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة معادية وقاسية، تتفكك وحدة الحياة ويغترب الإنسان عن ذاته وعن الطبيعة. جفت ينابيع الوادي وفقد الاخضرار وأصبح فضاء غريبا حتى لأهله "بدا المكان لفواز وكأنه لم يره من قبل. ولم تعد له صلة بالوادي الذي تركه، لم يبق شيء من الأشياء القديمة، حتى الريح التي كانت تهب في مثل هذا الوقت من السنة طرية منعشة، أصبحت لفحا قاسيا خلال ساعات النهار، وبردا ينفذ إلى العظم في ساعات الليل المتأخرة." (39)

غاب وادي العيون ليسكن في النفوس، ويغزو الفاجع الإنساني الأكبر لبشر ولمرحلة من التاريخ. وكما أشرت في الدراسة، فإن "متعب الهذال" وكأي رجل بدائي يجعل للأشياء أرواحا، ولا يستطيع أن يتصور عالمه الطبيعي جامدا، إن الأشجار مثل الأطفال، بمقدار ما ينظر الرب إلى البشر من خلال الأشجار، وبمجرد قطع الأشجار/المرأة جف الضرع، وتفككت وحدة الحياة.

هوامش البحث:

1- Stéphanie Posthumus : Écocritique :vers une nouvelle analyse du réel, du vivant et du non-humain dans le texte littéraire, in « Humanités environnementales –enquêtes et contre-enquêtes-» , sous la direction de : Guillaume Blanc, Elise Demeulenaere, et olf Feuerhahn, éd de la Sorbonne, Paris, 2017, p161.

2- جريج جرارد: النقد البيئي، ترجمة عزيز صبحي جابر، أبو ظبي للثقافة والتراث. دار كلمة، ط1، 2009، ص15.

- 3- نفسه، ص 11
- 4- نفسه، ص 16 بتصرّف
- 5- نفسه، ص 13
- 6- نفسه، ص 13
- 7- عبير جودت حافظ عبد الحافظ: النقد البيئي ونظرية الأدب (دراسة في نماذج روائية عربية معاصرة) مخطوط ماجستير، 2022 ، جامعة قطر، ص 19
- 8- نفسه، ص 56
- 9- نفسه، ص 119
- 10- جرج جرارد: النقد البيئي، ص 17
- 11- نفسه، ص 18/17
- 12- عبير جودت: النقد البيئي ونظرية الأدب، ص 44
- 13- جريج جرارد: النقد البيئي، ص 37 بتصرّف.
- 14- نفسه، ص 37
- 15- نفسه، ص 37
- 16-Larence Buel : Writing for an endangered world, Harvard editions. 2003, p22 .
- 17- جريج جرارد، ص 12
- 18- نفسه، ص 37
- 19- نفسه، ص 178/177
- 20- عبير جودت: النقد البيئي ونظرية الأدب، ص 179
- 21- نفسه، ص 179
- 22- نفسه، ص 72
- 23- نفسه، ص 97/96

- 24- جريج جرارد: النقد البيئي، ص 17
- 25- جريج جرارد: النقد البيئي، ص 43
- 26- عبير جودت: النقد البيئي ونظرية الأدب، ص 130
- 27- نفسه، ص 130/131
- 28- صارنست فيشر: ضرورة الفن ترجمة: اسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971، ص 56
- 29- عبد الرحمن منيف: الأشجار واغتيال مرزوق المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 189
- 30- السير جيمس فريزر: الغصن الذهبي، دراسة في السحر والدين، ترجمة: أحمد أبو زيد الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1971، ص 391
- 31- نفسه، ص 208
- 32- عبد الرحمن منيف: الأشجار واغتيال مرزوق، ص 44
- 33- عبد الرحمن منيف: التيه ج 1 مدن الملح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، 1988، ص 7
- 34- نفسه ص 8
- 35- نفسه ص 67
- 36- عبير جودت النقد البيئي ونظرية الأدب، ص 37
- 37- عبد الرحمن منيف: التيه ص 72
- 38- نفسه، ص 105
- 39- نفسه، ص 131

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً- المراجع العربية:

- 1- عبير جودت حافظ عبد الحافظ: النقد البيئي ونظرية الأدب (دراسة في نماذج روائية عربية معاصرة) مخطوط ماجستير، 2022 ، جامعة قطر.
- 2- عبد الرحمن منيف: الأشجار واغتيال مرزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 3- عبد الرحمن منيف: التيه ج 1 مدن الملح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، 1988.

ثانياً- المراجع المترجمة:

- 4- جريج جرارد: النقد البيئي، ترجمة عزيز صبحي جابر، أبو ظبي للثقافة والتراث. دار كلمة، ط1، 2009 .
- 5- صارنست فيشر: ضرورة الفن ترجمة: اسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971.
- 6- السير جيمس فريزر: الغصن الذهبي، دراسة في السحر والدين، ترجمة: أحمد أبو زيد الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1971.

ثالثاً- المراجع الأجنبية:

- 7-Stéphanie Posthumus : Écocritique :vers une nouvelle analyse du réel, du vivant et du non-humain dans le texte littéraire, in « Humanités environnementales –enquêtes et contre-enquêtes-» , sous la direction de : Gillaume Blanc, Elise Demeulenaere, et olf Feuerhahn, éd de la Sorbonne, Paris, 2017.
- 8-Laurence Buel : Writing for an endangered world, Harvard editions. 2003.

References :

- 1- Abeer Jawdat Hafez Abdel Hafez: Environmental criticism and literary theory (a study of contemporary Arab novelist models), Master's manuscript, 2022, Qatar University.
- 2-Abdul Rahman Munif: Trees and the Assassination of Marzouk, Arab Foundation for Studies and Publishing.
- 3- Abd al-Rahman Munif: The Lost, Part 1, Cities of Salt, Arab Foundation for Studies and Publishing, third edition, 1988.
- 4- Greg Gerard: Environmental Criticism, translated by Aziz Sobhi Jaber, Abu Dhabi Culture and Heritage. Dar Kalima, 1st edition, 2009.
- 5- Current Fisher: The Necessity of Art, translated by: Asaad Halim, Egyptian General Authority for Copyright and Publishing, 1971.
- 6- Sir James Frazer: The Golden Branch, a study in magic and religion, translated by: Ahmed Abu Zeid, Egyptian Authority for Copyright and Publishing, 1971.
- 7- Stéphanie Posthumus : Écocritique: vers une nouvelle analyse du réel, du vivant et du non-humain dans le texte littéraire, in «Humanités environnementales –enquêtes et contre-enquêtes–», sous la direction de: Guillaume Blanc, Elise Demeulenaere, et olf Feuerhahn, éd de la Sorbonne, Paris, 2017.
- 8- Laurence Buel : Writing for an endangered world, Harvard editions. 2003.